

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



اختصاص: أدب عربي

قسم الآداب واللغة العربية

السنة: الثالثة ليسانس

دروس أدب الهامش

ضبط مفهومي المركز والهامش

أولا/ مفهوم الهامش:

توطئة:

يرى الباحث المصري "محمدي أحمد توفيق" بأنّ العادة التي ألفها الباحثون بافتتاح دراساتهم لأيّ موضوع باستشارة المعجم وعرض المعاني اللغوية المختلفة قبل تناول المعنى الاصطلاحي الذي هو مدار البحث الحقيقي ومناطه وهدفه، هي عادة عربية، لأننا لا نجد العرص نفسه في مؤلفات اليونان في التمييز بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي.

فإذا عدنا إلى أرسطو -على سبيل المثال- نجد أنّ التفاته إلى الأصل اللغوي لكلمة دراما بعد أن أقام الدلالة الاصطلاحية كان التفاتا عرضيا وقاصرا على ما يتصل بموضوعه؛ ويرى بعض الباحثين في نهج العرب في الاستفتاح بالمعجم استطرادا غير مفيد، ويعزز هذا الرأي أنّ كثيرا مما يقدمه المعجم استطرادا غير مفيد، ويعزز هذا الرأي أنّ كثيرا مما يقدمه المعجم لا صلة له بموضوع البحث.

أ) لغة:

عند العودة إلى لسان العرب لنستشير في كلمة المهمشين لا نجد شيئا ذا صلة واضحة بمعنى التهميش، وكان هذا عكس ما كنّا نتوقع، إذ كنا نتقرب أن نجد في المادة اللغوية معلومات كثيرة لا صلة لها بالمعنى المراد، ولكننا لم نكن نتوقع أن تكون خالية مما له صلة به، ذلك أنّ ماوتها تتوالي كما يأتي:

■ « همش: الهمشة: الكلام والصركة، همش و همش القوم فهم يهمشون ويهمشون وتهامشوا. وامرأة همشي الحديث، بالتصريح: تكثر الكلام وتجلب. والهمش: السريع العمل بأصابه. وهمش الجراد: تصرع ليثور... ويقال للناس إذا كثروا بمكان فاقبلوا وأوبروا واختلطوا: رأيتهم يهتمشون ولهم همشة... ويقول ابن الأعرابي: الهمش والهمش كثرة الكلام والظلم في غير صواب؛ وأنشد: وهمشوا بكلم غير حسن¹».

فالمادة لا تشير إلى معنى التهميش المقصود، ولقد حاول باحثون تأويل ما ورد في هذه المعاجم اللغوية بكون الصركة وكثرة الكلام والثورة سمة المهمشين والغوغاء.

وردت الكلمة أيضا في معجم الوسيط: « (همش) الرجل همشا أكثر الكلام في غير صواب والقوم تصرعوا والجراد تصرع ليثور والشئ همشا جمعه، (همش) الكتاب علق على هامشه ...، (الهمش) القوم كثروا بمكان فاقبلوا وأوبروا واختلطوا... (الهامش) حاشية الكتاب وفلان يعيش على الهامش لم يدخل في رحمة الناس (محدثة)²»، تطرق المعجم إلى معنى الهامش في سياقات عدة فيبين أنه المنبؤ والخارج عن المتداول والبعيد عن الشائع والمركزي فالهامش هو نقيض المركز.

وقد وضعت الكلمة كمعادل عربي للكلمة الأجنبية *Le marginal* وهي ترجمة وليست تعريفا، كما يلاحظ، ولكن هذا لا يبرر تحمل المادة اللغوية للمعنى الجديد، فلا بد من وضع لغوي يرشح تحميل المادة بالمعنى الجديد.

¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (ه م ش).

² مجمع اللغة العربية: معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004م، ص994.

ب) اصطلاحاً:

إنّ مصطلح الهامش مثله مثل مصطلح المركز مرتبط بعدة مجالات، وفق ما سنبينه فيها يأتي:

■ فالهامش في المجال السياسي هو المتمرد على السلطة الحاكمة،

■ وينشأ الصراع السياسي حول رأي وضده، أي أنّ معظم هذا الصراع هو صراع معنوي من أجل اثبات رأي أحد الطرفين، وهو صراع بين السلطة والشعب، وعصيان هذا الأخير قد يؤدي إلى تفكيك النظام الذي هو المركز السياسي.

■ والهامش في الاقتصاد هي الدول التي تستهلك انتاج الدول المركزية: «وهي الدول السائرة في طريق النمو من قارة آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية»¹؛ همشت هذه الدول لأنها لا تقوم بالنشاط الاقتصادي والصناعي، وتعتمد على ما تصدره من بترول والمواد الخام، ويطلق على هذه الدول العالم الثالث.

■ المهمش في علم الاجتماع: هو المنبوذ والمعزول اجتماعياً، والفرد والجماعات غير المندمجة وغير الفاعلة، يقول "فانسون باير" Vincent peyre: «فالهامشية بين المنصرف والمتشرد من الناحية القانونية، وبين المجنون والمدمن من الناحية الصحية وبين الأمي والمهاجر من الناحية الثقافية، وبين الفقير جداً والعاطل من الناحية الاجتماعية والاقتصادية»²؛ يلاحظ على هذا التعريف أنه أهمل الجاني السياسي الذي يجسّد فكرة المركز

¹ الباح دليلة: الهامش والمركز، ص 304.

² نقلاً عن: بركات محمد أرزقي: الثقافة الهامشية وأثرها على الانحراف-دراسة ميدانية نفسية اجتماعية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1988-1989م، ورقة 27.

والهامشي. فالمهمش بالمعنى الاجتماعي هو كل منبوز متمرر ومتجاوز للسلطة الاجتماعية بما فيها من أعراف وتقاليد وقوانين، وهو موقع اجتماعي غير قياسي (تبعي)، والمهمش خارج العملية الإنتاجية، وجماعة غير متكيفة وضعيفة الاندماج، ومعارضة للسلطة وللشرائع القريبة منها.

فالبصوت الاجتماعية تنظر إلى المهمشين بوصفهم فئات منصرفة كالمسولين واللصوص والمسجونين الذين أبعدهم القانون خارج المجتمع تقويميا لسلوكهم.

غير أن التراث الشعبي لا ينظر إليهم نظرة دونية بل إن السير الشعبية تحتفل بهم وتكسبهم سمات إيجابية، وهو ما يجعل منهم أبطالاً، هذا أن الحكم القيمي والخلقي عليهم هو مناط الحكم بدونيتهم ليس إلا حكماً نسبياً، فهم عند الطبقات الحاكمة من العقارة والانحطاط الخلقي، وعند المتعاطفين معهم تشير إلى الظلم الواقع عليهم، كذلي كانت الإدارة الاستعمارية تنظر إلى المجاهدين في حرب التحرير، فلم يكونوا سوى أرهابيين-حسبهم- ولقد تغيرت نظرة التاريخ لهم فيما بعد بتغير السلطة التي أصبحت لأهلها.

■ الهامش في لغة الوراق: «هامش يهملش تهميشا الكتاب ونحوه: أضاف ملاحظات على هامشه، هامش الموضوع أي جعله هامشياً ثانوياً»¹، فالمعنى يتعلق بهيئة توزيع الكلام على الصفحة المخطوطة أو المطبوعة، فلها صدر ولها هامش يعيط به، أما الصدر فللنص أو المتن، وأما الهامش فلتتابعه من التشية والتعليق.

¹ أنطوان عابد وآخرون: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (ه م ش).

وهي معاني توحى بالدونية، ولكن هذا التقدير شديد الخطأ، لأنّ العواشي شديدة الأهمية في كل نص، فذلك أنّ العواشي هو ما يوثق المادة المعرفية، ويروّنها إلى أصولها الصحيحة، والعناية بالتوثيق هي الشرط الضروري لأي خطاب علمي باحث عن الحقيقة، وبالتالي ينبغي علينا أن نصصح تصورنا للتمهيش.

■ **الأوب الهامشي:** يرتبط الأوب الهامشي بالجوانب السابقة، فهو «كل أوب ينتج خارج المؤسسة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو أكاديمية»¹، وما يضيفه هذا التعريف هو تجاوز سلطة الكتابة أي النسق المعروف، من ذلك أنّ الشعر الحدائي بقي مرفوضا إلى وقت قريب بسبب النسق العمودي النموذجي الذي لا يريده النقاد تجاوزه.

وهذا المعيار بجانب للصواب لأنّ الإبداع لا يعرف القيود، ولا يعترف بالقوانين، والمبدع هو الذي يبصر نحو المجهول باحثا عن التفرّد والناور والتميز، مستقصيا عن الجدية.

ومن الدارسين من يرى أنّ الأوب المهمش هو: «أوب المغضوب عليهم من طرف المؤسسة»، إما لأنهم يحاربونها علنا، أو يقدمون بدائل للحياة، فأوب الهامش أو المحيط يأتي دائما بما هو مخالف للسائد أو المعتاد، حافلا بالجدية، عاريا بالمفاجئات، فتقوم المؤسسة (الكاتبة/ السياسة) بلجم صوته وقمع أفكاره، ومنعه من تجاوز الخطوط الحمراء.

ويصطلح أيضا على كل ما هو هامشي في الأوب بالأوب الشعبي أو الأوب الجماهيري أو الأوب الدوني، وهو كل ما يرتبط

¹ عبد الرحمان تيرماسين وصورية جيجخ: اشكالية المركز والهامش في الأدب، ص32.

وينطوي تحت الأدب الشعبي بصفة عامة، وهو أدب محلي صادر عن عامة الشعب، فهو لا يمثل الثقافة العالمية وإنما ثقافة الهامش، وينظر إليه على أنه في مرتبة أدنى مما هو عالمي.

فالأدب الهامشي هو أدب لا يخضع للرقابة المؤسساتية، لأنه لا يتمشى والنماذج والأنساق المألوفة، فالمعيار هو الكتابة الكلاسيكية التقليدية، والانفلات من الرقابة الرسمية، ولكن هذه المعايير والاعتبارات خاطئة لأنّ الأدب يحتاج إلى الإبداع والتجديد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ هذه الأعمال تحصل قيمة فنية وجمالية، وهذا هو الأساس وليس موافقتها للسلطة.

ومن المهم الإشارة في الأخير إلى أنّ الحديث عن الهامش غالبا ما يستدعي المركز، إذ لا وجود لهامش دون مركز يهمله، وفيما يلي ضبط لمفهوم المركز.

ثانيا/ مفهوم المركز:

توطئة:

تعد ثنائية المركز والهامش من الثنائيات التي أثارت جدلا بين النقاد، هذه الثنائية التي نجد لها في مجالات عديدة كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب، وكانت العلاقة بين الثنائية هي علاقة تنافر وصراع.

فبعد أن كانت المركزية تنسب إلى أوروبا في جميع المجالات أراوت دول العالم الثالث أو النامية أن تثبت نفسها كما أن المهمشين الذين ينظر إليهم عادة على أنهم الفئة الأقل اندمجا وانتاجية وتفاعلا في المجتمع، يصبحون هم القوة الفاعلة وأن الأدب المهمش كثيرا ما يتحول إلى أدب عالمي مركزي، وعليه ينبغي الوقوف عند تعديده المفهومين، متدرجين من المعنى اللغوي إلى الاصطلاحي.

(أ) لغة:

جاء في اللسان: « ركز: الرّكزُ: غَرَزُهُ شَيْئًا مُنْتَصِبًا كَالرَّمْعِ وَتَحْوَهُ تَرَكُّزُهُ رَكْزًا فِي مَرَكِّزِهِ، وَقَدْ رَكَّزَهُ يَرَكِّزُهُ وَيَرَكِّزُهُ رَكْزًا وَرَكَّزَهُ: غَرَزَهُ فِي الْأَرْضِ... وَالْمَرَاكِزُ: مَتَابِتُ الْأَسْنَانِ. وَمَرَكُّزُ الْجُنْدِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي أَمَرُوا أَنْ يَلْزَمُوهُ وَأَمَرُوا أَنْ لَا يَبْرَحُوهُ. وَمَرَكُّزُ الرَّجُلِ: مَوْضِعُهُ. يُقَالُ: أَخَذَ فُلَانٌ بِمَرَكِّزِهِ...وَالْمَرَكِّزُ مِنْ يَابِسِ الصَّشِيشِ: أَنْ تَرَى سَائِقًا وَقَدْ تَطَايَرَ عَنْهَا وَرَقَّتْهَا وَأَغْصَانُهَا. وَرَكَّزَ الصَّخْرَ السَّقَا يَرَكِّزُهُ

ركّزاً: أثبتته في الأرض»¹؛ إذ تدور معاني المادة اللغوية (ر ك ز) حول الثبات والقوة.

وقد تمّ اشتقاق كلمات من هذا الجذر اللغوي ليدل على معاني أخرى، من ذلك: مركزي: الذي تتشعب منه فروع وترجع إليه، مركزية: جمع السلطة في مركز واحد، ركز: بمعنى كثف، تركّز: أي أصبح أكثر قوة وكثافة وانصب على مسألة أو عمل وانخرط فيهما «فكل هذه المعاني تتصل بالقوة والتحكم في الملك والسمو، وترتبط بالتكثيف والاستحواض، والقدرة على أخذ القرارات»²؛ ولهذه المعاني اللغوية علاقة بالاصطلاح.

(ب) اصطلاحاً:

نجد هذا المفهوم- كما قلنا سابقاً- في عدة مجالات، نذكرها فيما يأتي:

■ **المركز السياسي:** استخدم هذا المصطلح في بداية القرن التاسع عشر بفرنسا عندما نزات قوة الحكومة على المنظمات السياسية المحلية وقضت عليها³.

■ **المركز الاقتصادي:** الذي يركّز على الدول الكبرى والدول الصغرى، اعتماداً على احصاء الإمكانيات، ولعل أول من استخدم هذا المصطلح اقتصادياً هو الأرجنتيني "راؤول بريش"^{*}

¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (ر ك ز).

² عبد الرحمان تيرماسين وصورية جيجخ: اشكالية المركز والهامش في الأدب، مجلة أبحاث في اللغة والأدب العربي، جامعة بسكرة، الجزائر، ع10، 2014م، ص28.

³ ينظر: المرجع نفسه، والصفحة.

^{*} راؤول بريش (Raúl Prebisch): أول سكرتير عام لمؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة، وطرح سياسة جديدة للتجارة والتنمية 1964م هذا التقسيم لدول العالم.

حيث يقول: «الاقتصاد العالمي الصر ينقسم إلى دول المركز، الدول الصناعية البالغة التقدم في أوروبا الغربية المتحدة واليابان...وتقوم هذه الأخيرة بتصدير سلع مصنعة، ويعتبر التقدم التقني الذي يسمح بتزايد معدلات الإنتاجية»¹، فالدولة المركزية هي الدولة المنتجة والمصنعة التي تقوم بالتصدير، وتسيطر هذه الدول على الاقتصاد العالمي من خلال انتاجها للسلع وتصديرها للدول الأخرى، فالمركز الاقتصادي يعتمد على الإنتاج والتصنيع والتصدير.

■ **المركز الاجتماعي:** هو تعبير يستخدمه علماء الاجتماع بمفهوم اجتماعي جغرافي تنموي للدلالة على العلاقة بين قلب القوة وثقافة المجتمع ومناطقه المحيطة، فالمركز في مجتمع التنمية يعني اجتماع الخدمات في منطقة محدودة، وغالبا ما تكون المدن الكبرى حيث تجتمع وسائل الاتصال والمواصلات والبنوك والمستشفيات²... كما يعني «التقسيم الطبقي لفئات المجتمع، فتختلف طبقة الأسياد عن العبيد، وطبقة الأغنياء عن الفقراء، وتنتج عادات خاصة باللباس والأكل والشرب والجلوس... ولا يمكن للطبقة الأدنى أن تمارس عادات الأسياد لتمييزها الطبقي واختلافها الاجتماعي والاقتصادي»³، فالمركز هو طبقة الأسياد التي تهيمن على كل الأوضاع الاجتماعية ماويا ومعنويا، فنجد عند هذه الطبقة الغنى والثراء والعادات والتقاليد الخاصة بها، ومنه نشأ ما يسمى بالطبقة الغنية التي

¹ ميشيل مان: موسوعة العلوم الاجتماعية، تر: عادل مختار الهواري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، 1999م، ص99.

² ينظر: عبد الرحمان تيرماسين وصورية جيجخ: اشكالية المركز والهامش في الأدب، ص29.

³ الباج دليلة: الهامش والمركز، مفهومه وأنواعه، جذوره، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، ع4، 2012م، ص299.

تلغي الطبقة الوسطى، وتجعل المجتمع يتأرجع بين كفتين هما الغنى الفاحش والفقر المدقع، وهو ما تجسده الرواية التي بين أيدينا.

■ **المركز الثقافي:** هو المكان المكثف ثقافيا، لما يتوفر عليه من وسائل الإعلام والتعليم والثقافة من مساحات وقاعات محاضرات ومعارض، إنها المراكز التي تسير الثقافة والفن والتعليم وتكون في العواضر¹، ومن العواضر الثقافية في الجزائر (بجاية، وقسنطينة، وتلمسان).

■ **الأدب المركزي:** إن مفهوم المركزي في الأدب لا ينفصل عن الجوانب المذكورة سابقا فهو المعبر عنها، وأدب البلدان الكبرى هو أدب مركزي، وسواء أدب هامشي، وولينا على ذلك أن العرب كانوا مهمشين دائما عن الجوائز العالمية ومنها نوبل، وعلى المستوى المحلي فإن الأدب المركزي هو أدب السلطة، أو «هو أدب البلاط، وأدب يشتغل بحياة الترف التي يحياها الخاصة من الساسة ورجال الدين أحيانا»²، إنه الأدب الرسمي الذي يعطى برعاية السلطة فتقام له الندوات ويُدْرَج في البرامج الدراسية، ويشيد به الإعلام.

ويلتقي مصطلح المركز بمصطلح الأدب العالمي الذي يمثل أدب النخبة، والأدب الأرستقراطي ويمثل عند الغربيين الأدب الكلاسيكي، كالذي يكتبه شكسبير ورامبو وجيمس جويس، أما عند العرب فنذكر شعر المعلقات، وشعر المتنبي والفرزدق وابن زيدون... وغيرهم ممن كتب ضمن نموذج أدبي، فنصوصهم تمثل

¹ ينظر: عبد الرحمان تيرماسين وصورية جيجخ: المرجع السابق، ص 29.

² عبد الرحمان تيرماسين وصورية جيجخ: اشكالية المركز والهامش في الأدب، ص 30.

النصوص النموذجية التي تدرّس في المؤسسات التعليمية وتخضع للنقد والتأويل.

وهو ما يطلق عليه "عبد الله الغدامي" الأديب المؤسساتي أو أديب السلطة، مستهلاً بكتاب البيان والتبيين لـ "الجاحظ" حيث يقول: «إنّ هذا الكتاب يمثل نموذجاً لتجاوز نسقين ثقافيين يتجاوران في حال الصراع المكبوت بين المتن والهامش، بين الثقافة المؤسساتية المهيمنة والثقافة الشعبية المقموعة، ومن ثم فإنّ المؤلف يتوسل بالاستطراء لكي يتمكن من العبث بالنسق دون ملاحظة من الرقيب الثقافي المؤسساتي»¹، أي أنّ هذه الثقافة المؤسساتية تستعين بالنص المكتوب، ما يعني أنّ النص الشفهي لا تعدّه ثقافة عالمة وأديباً مركزياً، فالشعبي لا يمثل الإبداع الحقيقي، إلّا إذا كانت هذه الثقافة تعطي بعناية السلطة، وبعد تحقيق ذلك يصبح هذا الأديب مشهوراً ومتداولاً وقد خرج عن نطاقه القومي إلى العالمية.

¹ عبد الله الغدامي: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005م، ص225.

ثالثا/ تاريخ أدب الهامش

1) عند العرب:

إنّ فكرة التهميش قديمة، يظهر قدمها إذا تصرّنا من لفظها ولاحظنا أنّ أفكار القمع والقهر والاستغلال التي طالما تحدثت عنها البشرية تشير ضمنا إلى فكرة التهميش.

وفي مجال الدراسات الأدبية من الصعب أن نجد متحدثا يتناول شعر الصعاليك* في العصر الجاهلي، ولا يقارب هذه الفكرة، وقد تحدث عن التهميش الباحث التونسي "الطاهر ليب" في كتابه سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العفري أنموذجا، وقد ألفه بالفرنسية، وترجمه إلى العربية: محمد حافظ ويا، ويتناول الكتاب الوضع الهامشي لفئة العفريين، وسبب تهميش العفريين أنهم شبوا بنساء في مجتمع يراعي حرمة المرأة.

وقد تعمقت فكرة التهميش بعد الإسلام، بعد تعمق التناقض بين البدو والحضر، وأدى هذا كله إلى عداوة من البدو، وبعض الشرائع الريفية للسلطة لعم الاهتمام بها، حتى اضطرت إلى أن تعتمد على اتاوات تنالها من اليهود.

* الصعاليك: مصطلح يطلق على جماعة من العرب في عصر ما قبل الإسلام، ويعودون لقبائل مختلفة، كانوا لا يعترفون بسلطة القبيلة، فطردوا منها، ومعظم أفراد هذه الجماعة من الشعراء المجيدين، ولكنها لا تنتمي إلى المملقات لأنّ السلطة لم تحتف بها وهم أنواع: الخلاء الشذاذ: الذين خلعتهم قبائلهم بسبب أعمالهم التي لا تتوافق مع أعراف القبائل، وفئة من أبناء الحبشيات ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بنسبهم مثل: السليك، وتأبط شرا والشنفري، ومنهم من احترف الصعلكة مهنة وجعلوها فروسية، مثل عروة، وشعرهم من عيون الشعر العربي، وقد خرجوا من سلطة الكتابة أيضا ومن ذلك أنّ الفخر الذي كان قديما بالقبيلة أصبح عندهم فخر بالذات.

هذا دليل أن الأدب لطالما التفت إلى المهمشين، إن لم نقل إنه الموضوع الأول له، إذ نجد حديثاً عن المهمشين في رواية (الصرافيش) لنجيب محفوظ، وروايته (أولاد حارتنا)، ولا يختلف الحال مع الشعر منه مع الرواية أو القصة، فقد جعل "طه حسين" مثلاً (بني وركان) بطله (وعاء الكروان)، وهو نموذج صارخ على رعاية الرواية بمجتمعات مهمشة، ونجد "أمل ونقل" في قصيدته (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة)...

وبعد أن فشا فينا مصطلح التهميش، أصبحت عيوننا قاهرة على أن ترى مظاهر التهميش حيث تكون، أما قبل ذلك فلم يكن التهميش حاضراً بنفسه، فلم يكن الشعراء الصعاليق في الجاهلية يصعدون في شعرهم وسلوكهم عن التهميش صدى وراوعياً، وقد شاع لهذا الوعي منذ هزيمة 1967م (حرب بين إسرائيل ومصر انتهت بدحر العرب) وصولاً إلى عقد التسعينات الذي مثل الانطلاقة الحقيقية للاهتمام بالتهميش والمهمشين في الأدب.

وعليه فقد نشأ الأدب الهامشي مرتبطاً بحركات المعارضة المتنوعة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فنية، وهي ليست وليدة القرن العشرين، لكنها ولدت مع ولادة الأدب نفسه لكنها تجلت بكثرة وبحدة في القرن العشرين، وبالضبط في العقد التاسع منه، حتى اقترح بعض الباحثين أن يسمى لهذا الأدب بأدب التسعينات «ويعترض "إبراهيم عبد المجيد" على تسمية هذه النصوص الجديدة باسم أدب التسعينات؛ لأنها تسمية تضر بكتاب آخرين مجيدين لا ينتمون إلى الظاهرة نفسها، ويفضل على هذه التسمية مصطلحات من نوع أدب الجسد أو الأدب الهامشي أو أدب اليأس أو أدب العزلة

وكلها سماتٌ تتسع وتنكماش في هذا الأدب»¹؛ كما يعرف أيضا بالأدب الموازي Paralittéraire، والمصطلح مكوّن من السابقة Para التي تعني ضد أو بجانب أو حول والجذر Littéraire بمعنى أدبي، مما يجعل التركيب بمعنى الأدب الشبيه أو الموازي أو المعادل.

(2) عند الغربيين:

اهتم المقارنون بحقل الآداب المهمشة في محاولة للكشف عن الأنواع الأدبية التي ترافق الأدب الرسمي، من خلال لقاء الضوء على العلاقات الأدبية بين مختلف الأمم التي تبدو أكثر تجليا في الآداب الشعبية.

أما عن بداية الاعتناء بهذه الكتابات، فكانت في جامعة بور دو بين سنتي (1961-1963م) الذي طرح قضية الآداب المتعالية والآداب الدنيا، ثم ملتقى (سيرسي) أين تعود مصطلح الأدب الهامشي وتعينت حدوده.

وقد ارتبط الأدب الهامشي عند الغربيين بجملة من الأمور نجملها في:

- o مشاكل الطبقة الاجتماعية البسيطة.
- o التطور الصناعي الذي شهده القرن التاسع عشر الذي أنتج فوقاً جديداً ومواضيع جديدة.
- o اتهام الصحافة في الترويج لهذا الأدب من خلال نشر الروايات المسلسلة.
- o استفادة مختلف الإبداعات الموازية من الاكتشافات العلمية، فلم يكن ممكناً الحديث عن الجريمة المنظمة في الرواية

¹ مجدي أحمد توفيق: أدب المهمشين، متاح على موقع جهة الشعر (مرجع الشعري العالمي الإلكتروني): www.jehat.com.

البوليسية التي يعتمد حلها على الطب دون أن يعرف العالم
نتائج تحليل ADN...

o المذهب الرومانسي الذي فتح المجال لنشاط الآداب المهمشة
والشعبية، وهو ما يخالف الآداب الكلاسيكية التي كانت تعد أوبا
رسميا مركزيا.

وخلاصة للقول فإننا نستطيع أن نقرأ التهميش في نصوص كثيرة
عبر التاريخ الإنساني بوصفه وضعاً إنسانياً يمكن أن يعانيه الناس في
كل أمة، ولكننا كلما تقدمنا في النصوص وتقدم بنا الزمن ووصلنا إلى
تسعينات القرن العشرين ألفينا مفهوم التهميش قد أصبح شعاراً أدبياً
وثقافياً أو ما يشبه الشعار.

رابعاً/ أنواع أدب الهامش:

توطئة:

إنّ المعنى الأدبي للتمهيش يشير إلى معانٍ فرعية كثيرة، فالمهمش قد يكون الإديب أو الأدباء، وقد يكون المهمش موضوعات أدبية لا يجزؤ أحد على تناولها، وأشهر ما يكون ذلك الموضوعات التي تسمى بالتأبؤ أو المعصومات الثلاث: الدين والسياسة والجنس ويعود الجسد - جنسا أو غير جنس- ألهم هذه الموضوعات، وإن تكن موضوعات النسوية تحل هذا التصور على تقدير أنها تكشف ذكورية النصوص وتقتحم الحقيقة الانثوية المطموسة، ويمكن أن نجمل أنواع أدب الهامش في:

(1) الأدب الشعبي:

يعود الأدب الشعبي المعبر الحقيقي عن حياة الشعوب وعاداتها وتقاليدها، والمحافظة على هويتها، وقد كان دائما أدبا مجهول المؤلف باعتبار طابعه الجماعي، وغير مدوّن باعتبار أنه ينتقل بالرواية، وأدب عامي اللغة (وفي حالات نادرة يدوّن بالفصحى)، وقد أخرجته المؤسسة الرسمية خارج مجالها فعدّ أدبا هامشيا، وفقدت بذلك الساحة الأدبية جزءا مهما من الأدب ككل.

ولما كان الأدب الشعبي أجراً على القضايا المعصومة على الأدب المتعالي فإنه أكثر ثراء وقل تبعه واحتراما لمعايير السلطات المختلفة.

ومن أسباب تهميش الأدب الشعبي نجد معيار اللغة، فقد كانت الفصحى هي اللغة المقدسة لدى العرب (القرآن الكريم والحديث

النبي)، وقد تنبه إلى خصوصياتها فصحاء القوم منذ شغلهم بيانها وسعرها، كما اعتنى بها أولو الأمر فأمروا بضبط قواعدها حتى لا يتسرب لحن العامة إليها.

أما العامة فتتداولها الطبقات الدنيا، ولقد رفض العلماء استعمال العامة لعدة اعتبارات:

- اعتبارات دينية: فالعامة لا تساعد على الاتصال بالعرف العربي المطبوع، ومن ثم يعجز المتعلمون عن قراءة القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي الشريف.
- اعتبارات قومية: العامة تفرق بين الشعوب العربية وتقطع روابط الفكر، وما كان من شأنه توحيد الاتجاه وتدعيم الصلات بين أبناء الوطن.
- اعتبارات تربوية: من يتعلم الفصحى يكون أقدر على تعليم العامة وعلى توصيل المعلومة وافهام المتلقي.
- اعتبارات لغوية: العامة أضيق لفظاً من الفصحى، وقد أثبتت التجربة أن الفصحى استطاعت أن تحوي كل معارف وعلوم الأمم الأخرى التي دخلت تحت صورة الأمة الإسلامية، ولذلك يحاربها الغربيون ويشجعون الأقليات على ترسيخ لهجاتهم.

(2) أدب الطفل:

طالما اعتقد الدارسون أن أدب الطفل هو أدب من الدرجة الثانية، إن كان أدباً أصلاً، ولم يعرف الاهتمام بهذا الأدب إلا لتحقيق وظيفة أخلاقية لأبناء النبلاء عبر قصص هادفة تحكيها المربيات في أوروبا، أما في الهند وفارس فكان وسيلة تعليم أبناء الملوك والأمراء مختلف شؤون الحياة.

ومن هذا المنطلق ظن الكتاب أن كتابتهم للطفل هي نزول إلى مستوى أدنى من التفكير والتعبير أيضا، متجاهلين سعة خياله التي قد تتجاوز سعة خيال الإنسان الراشد.

وقد التفت النقد مؤخرًا إلى ثقافة الطفل، وأخذ يخوض في هذا الميدان من خلال المسرح أو إعادة كتابة القصص الشعبي، وكذلك عبر الشريط المرسوم وقصص الخيال العلمي، وإدراجها في المناهج الأكاديمية.

(3) الرواية الورقية:

هي روايات يكتبها العصاميون، وتكون ذات توجه عاطفي غالبا ولا تخضع لقواعد الكتابة الروائية المعروفة في الأدب، ومنها السلسلة التي تصدرها مؤسسة Harlequin التي تسيطر على 90% من سوق الكتب في فرنسا، وقد سوّقت أكثر من 129 مليون نسخة سنة 1989م.

ومن أبرز كتابها نجد: "رفائيل بيريز" Rafael Perez في إسبانيا، و"كارولينا افرنزيو" Carolina Ivernizio في إيطاليا... وقد كان أغلبهم ينشط تحت أسماء مستعارة قبل أن تروج أعمالهم.

وقد دخل هذا النوع إلى الأدب العربي لأنّ التوجه كان في البداية إلى روايات التسلية والترفيه، وموضوعاتها المغامرة والعاطفة وفي مقابل هذا الاتجاه ظهر اتجاه آخر هو رواية الجنس Roman pornographique وقد عرفت في الأدب الفرنسي X.Roman وعرفت ازدهارا مع فن السينما والفيديو، وعرف الأدب العربي الحديث نماذج قليلة منها.

4) الرواية البوليسية:

اعتبرت من الآداب غير الجادة، ولكنها استقطبت شريحة كبيرة من القراء، وهي تتطلب الذكاء وسرعة البديهة والاهتمام بالتفاصيل الصغيرة من أجل السيطرة على هذا النص والوصول إلى مختلف الألغاز التي يقوم عليها، وقد ولج هذا النوع إلى الأدب العربي في بداية الحرب العالمية الثانية، وذلك عبر الترجمة، ومن أبرز من ترجم لهم نجد "كونان دويل".*

5) رواية الخيال العلمي:

هي المحكيات التي تتجلى فيها الافتراضات العلمية والتقنية من خلال البنية السردية، وتتمحور حول حدث خارج علمنا المكاني والزمني، مثل روايتي اليوتوبيا والديستوبيا التي سنتناولها لاحقاً.

وتكمن أهمية الخيال العلمي في توسيع القاعدة العلمية وجذب المواطن العادي للاستمتاع بالعلم واتخاذه أسلوباً في الحياة، وفتح نافذة على التقدم التكنولوجي في العالم، بالإضافة إلى لعاملين العقلي والخيالي الذي احرصا حاولنا فصلهما فستتوصل أعمال هؤلاء الكتاب إلى أعمال عاقرة غير مثمرة، إذن هذه الكتابات تحاكي واقعها وتجبر القارئ على المشاركة في عملية التأليف من خلال اندماج عاطفته وعقله معا.

وهناك ثلاث وظائف رئيسية للخيال العلمي:

* كونان دويل *Arthur Conan Doyle* (1859-1930م): السير آرثر إغناطيوس كونان دويل طبيب اسكتلندي وكاتب مشهور بتأليفه لقصص المحقق شرلوك هولمز التي تعد معلماً بارزاً في الأدب البوليسي، وأيضاً بابتكاره لشخصية البروفيسور تشالنجر ولإشاعته قضية باخرة ماري سليست الغامضة. كتاباته كانت غزيرة تضمنت قصص الفنتازيا وقصص الخيال العلمي، المسرحيات، وروايات رومانسية وواقعية وتاريخية.

● **الوظيفة الدعائية:** وهي متصلة بجميع الأعمال الأدبية التي تدعو بطرق مختلفة إلى الافادة من منجزات العلم النافعة، وعلى ضرورة وضع امكانيات العلم في خدمة البشرية ورفاهيتها.

● **الوظيفة الإنقاذية:** وهو اتخاذ موقف مضاد ورافض لما تأتي به بعض الاكتشافات العلمية من مخاطر واضرار على البشرية، فهذا الأدب يسعى إلى ترويض العقل الهمجي وكبح جماح قاطرة العلم التي تهدد أمن العالم.

● **الوظيفة التنبؤية:** وهي تنطلق من التسليم بأن امكانيات العلم النافع لا تنتهي، ولا يمكن له أن تكف أو تعجز عن صناعة مجتمع الرفاهية، وفي هذه الوظيفة يطلق أدب الخيال العلمي العنان للخيال للتنبؤ بشيء من الاكتشافات الجديدة التي تعلم بها البشرية، ولعل الوظيفة التنبؤية هي الأوفر حظا في سرديات الخيال العلمي بعامة، وقد جعلت للخيال العلمي فرعا معروفا باسم ادب المستقبل.

وكخلاصة نقول إنَّ السرد المحتفي بالهامش يراهن على الاشتغال على رؤية متصلة بالراهن المعيش، وبالسياقات السياسية والثقافية والعلمية التي انتجت هذه الكتابة المرتكزة على فضع آليات الإقصاء لعناصرها الثقافية...كذلك تراهن على رؤية العالم، وتحتفي بما هو مستبعد من قبل المركز في ظل سياق سياسي وثقافي متباين ومغاير عن السابق.